« كثرة الغَلَبة »*

مثل

– عجيب امر هؤلاء الجيران ! يا خليل . . فاننا لا نسمع الا صراخهم .

– ما لنا ولهم ، يا ليلى . الا تعلمين ان لكل انسان حالات يهيج فيها غضبه ، فيُدفع الى رفع صوته ؟

– اجل ان الغضب عاطفة تستولي على الجميع ، ولا تلبث ان يعقبها الهدوء . ولكن غضب هؤلاء الجيران مخالف غضب البشر ، فتراهم في هيجان دائم . اسمع ! اسمع ! لقد ارتفع الصوت . هناك خلاف بين الجار وامرأته يلزم ان اعرفه . تعالَ ! ادنُ من النافذة ، وتسمع .

فتقدّم خليل قليلًا ، وقال متضجرًا :

– لله منكنّ ، ايتها النساء ! ما « اكثر غلبتكن ! »

ثم اخذ وامرأته يتسقّطان اقوال الجيران . غير ان علوّ النافذة ، وسماكة الجدار ، والضجّة المتواصلة كانت تحول بينها وبين فهم اكثر الالفاظ ؛ فلم يكونا يسمعان الا المقاطع الرنانة والصراخ المتتابع . فأسفا لاحتدام الشجار بين جارهما وامرأته .

اخيرًا ضجر خليل فرجع الى مكانه ، قائلًا :

– ستكون العاقبة وخيمة !

فقالت ليلى :

– اسمع ! اسمع ! لقد بدأ الرجل باللعنات ، والمرأة بالتأوهات . مسكينة هذه الزوجة ، ففي كل يوم تلقى منه الاهوال .

– على رسلك ! انت تدافعين عن المرأة ! ومن يضمن لك ان لا ذنب لها ؟

– لنفرض انها مذنبة ، او لا يجمل بزوجها ان يتبصر في ما يقول ! أوَ

* تُطلق العامة هذا التعبير على الفضول وحب الاطلاع غير المشروع ، والميل الى التدخل في شؤون الغير .

لا يجدر به ان يعتبر امرأته ، بل ان يعتبر نفسه ، فيتأنى في غضبه . انه حيوان شرس لا يفهم اللطف والذوق معنى . يقضي ليله في الحانات ، ثم يجيئها الصبح فينغص عليها عيشتها . لقد مضى ثمانية ايام على وجودهما قربنا ، وفي كل صباح يسمعنا حضرته ما يكون قد حفظه بالامس من الالفاظ واللعنات التي يترفع عن التلفظ بها الخمارون انفسهم .

— ما لنا ولهم يا ليلى . قلت لكِ اني لا احب التدخل في امور الغير .

— طالما رددت على مسمعي هذه النغمة : « لا احبّ التدخل في امور الغير » ! فاصنع ما يوافقك . اما انا فقد عزمت على ان اشكو هذا الوقح الى البوليس ، اذا ضرب امرأته كالبارح ؛ لاني لا اطيق ان ارى هذه المسكينة تتعذب كل صباح .

فقهقه خليل وقال :

— يا لكِ من محامية بارعة ! أوَ تظنين اني سادافع عن الزوج فيحتدم الجدال بيننا . اصنعي ما يروقك ، واشكيه لا للبوليس فحسب ، بل لمحافظ المدينة ، اذا شئتِ .

وما كاد خليل ينهي كلامه حتى ارتفع الضجيج ، وعلا الصياح ، وسُمع صوت المرأة صاخبةً مهددة :

— « يا قاتل ! يا قاتل ! اصبر قليلًا ، سأُرجعتك الى السجن المؤبد ! لقد كفاني ما . . .

فاصفرّ وجه خليل ، وجذبته ليلى مضطربةً هامسة :

— تعالَ نذهب امام بابها ، فاننا لا نكاد نسمع شيئاً من هنا .

فخرجا ، واذا بصاحبة المنزل واضعةً اذنها على باب الجار ، وقد جحظت عيناها ، وتقلّصت شفتاها ، وفُتح فوها اندهالًا . فتبادلت وليلى بضع كلمات ؛ ثم سكتت الثلاثة وقد فعل فيهم التأثر مفعوله . ولم يلبثوا ان سمعوا امرأة الجار تصرخ من الداخل :

— « هدّدني ، يا قاتل ، هدّدني ! فوالله العظيم لارجعتك الى سجنك ! »

فصاح زوجها وقد خنقه الغضب :

— « يا ابنة ... أتريدين خفض صوتك ! ... »

— « لا ! لا ! الن ، واشتم ، وقل ما شئت . فاني اريد ان يسمعني الجميع ... ارفع يدك ، يا لئيم ! فانا اهزأ بك وبغضبك . ولا يهمني الموت الآن ، بعد ان قتلت صغيرتنا المسكين . نعم ، نعم ، لقد قتلته ، انت نفسك ، يا قاتل ، انت ، انت المجرم ! لم تشفق عليه ، يا ظالم ! »

— « كذابة ! ... »

— « انك تعلم حق العلم باني لا اكذب . »

فضحك الزوج ضحكة مستطيلة رمت الرعب في القلوب ، وقال ساخراً :

— « اختطت للامر من جميع وجوهه ، فافعلي ما بدا لك ، فلن تنالي شيئاً . »

فصاحت المرأة :

— « سترى عن قريب اني قادرة على اظهار الحقيقة . أو تظن ان سنك لم يترك أثراً ؟ ... »

— « ألا تسكتين عن هذا الموضوع ؟ . »

ثم تتابعت اللعنات والشتائم ، وسمع صوت المرأة متقطعاً ، مردداً :

— « كنت اظنك اكثر شفقة ايها الوحش الضاري ! »

فقوطع بضجيج شديد ، ثم سمع :

— « يا قاتل ! يا شقي ! يا شقي ! يا قاتل ! »

فعلا صوت الزوج مهدداً :

— « اني امنعك التلفظ بهذه الكلمة . »

— « ستسمعها من فمي حتى اعيدك لمقرك بين امثالك المجرمين ! »

— « اصمتي ، اصمتي ، ان كان لك مطمع في الحياة . »

— « يا قاتل ! »

— « والله ان تقوليها بعد اليوم ! »

وارتفع الصراخ ، وسمع صوت تساقط الكراسي والآنية . وكانت المرأة تئن من قلب جريح ، ثم جمعت قواها وصاحت بصوت ابح :

— « آه ! يا قاتل ! يا قا... »

فقطعت صياحها ضربة قاضية . ثم ساد السكوت الرهيب .

اما خليل وليلى وصاحبة المنزل فكانوا ذاهلين ، جامدين في مكانهم ، وقد علت وجوههم صفرة الرعب ، وعقد الخوف ألسنتهم . الى ان تحركت صاحبة البيت ، ولبت داعي الشفقة على الجارة المسكينة ، فقالت لخليل :

— «لا اخالك تترك هذه المسكينة تذهب ضحية هذا الوحش ، يا خواجه خليل ! » وكان خليل ، مع بغضه التدخل في شؤون الغير ، يفكر بطريقة يخلص فيها تلك المرأة المسكينة ، فما سمع كلام صاحبة البيت حتى صدم الباب بكتفه ، فاقتلعه ، ودخل غرفة الجار بسرعة البرق . . .

ولشدّ ما كان انذهاله عظيماً ، اذ رأى رجلاً يحلق امام المرآة ، وقربه امرأة بين يديها كتاب تقلب اوراقه . فوقف كالمصرق امام هذا المشهد . اما الرجل فالتفت اليه مستغرباً ، وقال حازماً هادئاً :

— ماذا تريد يا هذا ؟ وبايّ حقّ تخلع الباب ، وتدخل علينا ؟

فازداد خليل اضطراباً ، وتمتم :

— عفوًا ! يا سيدي ، أوَ لم تحدث المشاجرة هنا ؟

— واي مشاجرة تعني ؟ اني لا افهم ما تريد . فتفضّل بالخروج في الحال .

وكانت المرأة لا تزال تقلب صفحات الكتاب ، فعندما سمعت « بالمشاجرة» قهقهت طويلًا وقالت لخليل :

— يا لك من ابله ! أوَ حسبت ذلك مشاجرة ؟ كنا نراجع الفصل الثالث من رواية « القاتل » التي سنمثلها هذا المساء . فتفضّل واخرج ولا تضايقنا باسئلتك الباردة .

فخرج خليل خجلًا ، وهو يذمّ امرأته ورفيقتها ، ويلعن « كثرة الغلبة ».

***

ولم يتوارَ حتى قالت الممثلة لزوجها :

— يلزم ان نروي هذا الحادث لمدير المسرح ، فيقلع عن توبيخنا ، ويتأكد ان تمثيلنا طبيعي !

فؤاد افرام البستاني